العربية والعلوم الحديثة(*)

أ. د. حسين محمد نصار(**)

ثلاثة مآزق مصيرية واجهتها لغتنا العربية فى المجرى الذى أعرفه من حياتها:

أما المأزق الأول فقد وقع عندما أخرجها الإسلام من جاهلية غنية كل الغنى فى الإبداع الأدبى، فقيرة كل الفقر بل مملقة - فى الإنتاج العلمى، غير ما حصَّلته من تجاربها الساذجة. ثم ألقى بها - فى القرنين: الثانى والثالث الهجريين - فى بحر زاخر من الحضارات والعلوم والفلسفات والفنون، وكل صنوف المعرفة التى ابتكرتها الأمم المتاخمة للجزيرة العربية، كالفرس والروم والسريان والمصريين، والأمم البعيدة عنها كالهنود والصينيين والأتراك والبربر وشعوب أسبانيا.

ولكن العربية صمدت فى هذا المأزق، بفضل ما بثه الإسلام فى العرب من رغبة فى المعرفة، وسعى فى طلبها، وطموح وعزم وتخطيط وتنفيذ، وتعاون مع غير العرب من أبناء الشعوب العارفة باللغات الأجنبية واللغة العربية، فلم يمض إلا وقت غير طويل حتى نقلت العربية كل ما وجدت عند هذه الأمم إليها، فاستطاع أبناؤها بعدُ أن يتمثلوها فهمًا، ولم ينقض كبير وقت حتى شاركوا فى الإنتاج والابتكار.

فصار ما كتبه هؤلاء المفكرون والعلماء - منذ القرن الثالث - نبراسا، استضاءت به شعوب العالم القديم. لا يستطيع أن ينكر ذلك إلا منكر لعقله، منكر لشمس النهار الصحو، منكر لتاريخ الإنسان وتطوره الحضارى.

وكان المأزق الثانى عندما أخذ العرب يفقدون حسهم بأنفسهم، ويستبد بالسلطة فيهم ذوو الأصول غير العربية، إلى أن انفرد بها المماليك فالعثمانيون، الذين أزاحوا العربية عن دست الحكم، وفرضوا التركية لغةً رسمية على البلاد، فأخذت العربية فى الاعتلال والضمور، حتى على ألسنة العلماء وأقلام المؤلفين.

ويبلغ الضعف ذروته فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى، عندما تحالفت أقطار أوربا على اقتطاع الأقطار العربية من دار الخلافة الإسلامية. وواجه العرب - الذين نخر الضعف أجسادهم، وأهزل لغتهم حتى كاد يقتلها - حضارةً أوربية تريد بهم الغوائل. وعندما تدبروا الأمر وصلوا إلى الإيمان بأن عليهم أن يأخذوا من هذه الحضارة كل ما

(*) محاضرة ألقاها بمؤسسة الملك فيصل الخيرية، بمناسبة حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية فى الأدب واللغة.

(**) أستاذ الأدب العربى بجامعة القاهرة، ومقرر اللجنة المشرفة على مركز تحقيق التراث بدار الكتب.

يمكن أخذه، وكل ما يمنحهم القدرة على المواجهة والصمود، دون أن يفقدوا مقوماتهم الأساسية.

وتم الأمر كذلك، بفضل عدد قليل من الحكام المستنيرين، وعدد أكثر من المفكرين الواعين. فتحوا الأبواب للعلوم، ووضعوا الخطط للترجمة أولا، وللتأليف بالعربية ثانيا، إلى أن صار منهم العلماء والمفكرون الذين أضافوا إلى العلم الأوربى، وأقرت لهم الدول الأوربية بالتقدم.

وكان التعليم والتأليف والابتكار بلغة عربية سليمة. وخلصت العربية من المأزق الثانى.

ولكن هذه النهضة لم يطل أمدها ؛ لأن خصومًا كثيرين أحاطوا بها، وأفلح كل منهم فى أن يسيطر على قطر عربى أو أكثر، بذل قسطا كبيرا من جهوده فى توجيه التعليم والثقافة فيه الوجهة التى يريدها.

فوجدت أجيال من الشباب العربى التى تلقت المبادئ الأساسية للتعليم بلغة غير عربية، ووجدت سوق العمل رائجة لمن عرفوا غير العربية، مغلقة أمام من لا يعرفون إلا العربية، واستبد بهم إعلام محلى وأجنبى يضخم ـ ما استطاع ـ الفجوة التقنية التى بين مواطنهم والأقطار الأوربية.

فأوجد كل هذا أجيالا عربية الاسم، عربية العرق، عربية الكلام ـ ولا أقول اللغة ـ تؤمن بالتأخر العربى العلمى التقنى السحيق المدى. وذلك منها حق، ولكنها تؤمن فى الوقت نفسه أن من أهم أسباب هذا التأخر عجز اللغة العربية عن التعبير عن هذا التقدم، وتؤمن أن محاولة تعليم هذه العلوم بلغة عربية تقطع ما بين الشباب العربى والعلم الغربى من صلات، وتحول بينهم وبين مواكبة مجرى العلم، الغزير التدفق، السريع التجدد، الذى يكاد لايستقر عند ابتكار حتى يأتى بغيره.

وذلك هو مأزق العربية الثالث والحالى، ولعله أخطر المآزق الثلاثة؛ إذ تؤمن به جبهة عربية خالصة، ربما وصلت فى تخصصها العلمى إلى درجة رفيعة، ولكنها ضيقت النظر غاية التضييق. فأهملت الاعتبارات الوطنية والقومية؛ فاللغة من أهم مقومات وحدة الشعوب، والعربية من المقومات الرئيسية للوجود العربى، لعلها أقوى الروابط التى تجمع بين الأقطار العربية. فالإصرار على العربية إذن إصرار على إثبات الوجود العربى، وعلى تيسير التنسيق أو التضامن أو الوحدة العربية. فإن تعذرت الوحدة السياسية بين الأقطار العربية، فإن الوحدة اللغوية والثقافية هى المسعى الضرورى.

ولن تتم هذه الوحدة إلا بالمحافظة على اللغة العربية، واستخدامها فى كل مجال؛ لأن ذلك يؤدى إلى وحدة الشعور والفكر والاتجاه.

والتعليم باللغة الوطنية أمر طبيعى، تحرص عليه جميع الأمم، مهما اتسع أو ضاق نطاق المتحدثين بلغتها. لا يخرج على هذا الإجماع إلا أصحاب اللغات البدائية الفقيرة، أو أصحاب اللغات المحلية التى بلغت من التشتت والتعدد ما جعلها متدابرة؛ مما أجبر أهلها على استخدام لغة أجنبية. واستخدام مثل هذه اللغة البديلة عن اللغة الوطنية ضار بهذه اللغة، وبالمجتمع الذى يفعل ذلك.

وأهملت هذه الجبهة الاعتبارات الاجتماعية؛ لأن الجامعات ومراكز البحث العليا مؤسسات علمية «تختص بكل ما يتعلق بالتعليم الجامعى والبحث العلمى الذى تقوم به كلياتها ومعاهدها ومراكزها فى سبيل خدمة المجتمع، والارتقاء به حضاريا، متوخية فى ذلك المساهمة فى رقى الفكر، وتقدم العلوم، وتنمية القيم الإنسانية، وتزويد البلاد بالمتخصصين... وإعداد الإنسان المزود بأصول المعرفة وطرائق البحث المتقدمة، والقيم الرفيعة؛ ليساهم فى بناء وتدعيم المجتمع... وصنع مستقبل الوطن وخدمة الإنسانية»(*).

ولن تستطيع هذه المراكز العلمية خدمة المجتمع إلا بالارتباط به، وتعرُّف حاجاته، ودراسة أسبابها، ومواجهتها. أما الفصل بين الجامعيين ومجتمعهم فيؤدى إلى عواقب وخيمة، يؤدى إلى التمزق النفسى المدمر لخبرة الجامعيين، إزاء الاختلاف بين القيم التى يتلقونها فى جامعاتهم، والقيم التى يعيشيونها فى مجتمعهم. فإن نجوا من هذا التمزق، وقعوا فى شبكة السخط على هذا المجتمع المتخلف (فى نظرهم)، دون أن يدفعهم ذلك السخط إلى محاولة الارتقاء به. فإن برئوا من التمزق والسخط خشينا أن يقعوا فى وهمٍ يوسوس لهم أنهم فئة ممتازة لا تماثل بقية أبناء مجتمعهم، فيترفعون عنهم ويمزقون ما يربط بينهم من وشائج تبقى على المجتمع كله.

يضاف إلى ذلك أن استخدام العربية لغة للعلوم الحديثة يتيح للهواة والطامحين من غير رجال تلك العلوم أن يطلعوا عليها، فيتسع نطاق الثقافة العلمية فى المجتمع، ويرسَّخ الميل إليها. ويُوجِد هذا الاستخدام طبقة وسيطة بين العامل القديم والتكنولوجى الجامعى ذى التعليم العالى؛ طبقة تلقت قدرًا من العلوم المتقدمة، يجعلها قادرة على العمل بالأجهزة الحديثة المتطورة، وعلى صيانتها وإصلاحها. والسبيل القويم إلى ذلك هو استخدام العربية فى تعليم هذه العلوم.

(*) من قانون تنظيم الجامعات المصرية، سنة ١٩٧٢م.

وأهملت هذه الجبهة الاعتبارات العلمية والتربوية؛ فالتعليم عملية متصلة لاينفصل فيها التعليم الجامعى عن التعليم العام. ويقتضى هذا الاتصال وجود إطار للمناهج التعليمية؛ لتكمل مناهج كل مرحلة مناهج المرحلة التى تسبقها، وتعمل على الوصول بالطلبة إلى المستوى الذى تتطلبه الدراسة فى المرحلة التالية.

وإذا فرضنا على الطالب الجامعى أن يتلقى علومه بلغة غير لغته الوطنية، فرضنا عليه أن يواجه مشقتين: مشقة تحصيل المادة العلمية وفهمها، ومشقة فهم اللغة التى تُلقى بها هذه العلوم. أما إذا فرضنا عليه الدراسة باللغة الوطنية فإننا نعفيه من إحدى المشقتين، ونوفر له جهدًا يمكن له أن يستخدمه فى التحصيل العلمى وحده.

أما القول بعجز اللغة العربية عن الوفاء بحاجات العلوم الحديثة فدليل على عدم إدراك القوى البشرية، وقوة اللغة، وعدم معرفة بتاريخ العربية؛ فلا توجد لغة ناضجة تعجز عن التعبير، وإنما يوجد بشر يعجزون عن التعبير. فإن كان ذاك كذلك استوى العجز بالتعبير باللغة العربية مع العجز بالتعبير بلغة أجنبية؛ لأن المتكلم باللغة الأجنبية فى تلك الحالة لايكون معبرًا حقيقيًا أو أصيلا، وإنما يكون حاكيًا لما سمعه من أستاذ أو قرأه فى كتاب، ولن يرتفع عن هذا المستوى إلا إذا وصل إلى مستوى الإدراك الحق، الذى قد يؤدى إلى التجديد أو المخالفة أو الابتكار.

وليس الواقع العلمى للعربية اليوم بأسوأ ولا أفقر من واقعها يوم مأزقها الأول أو الثانى، وليس البون بينها وبين التقدم العلمى عند الأمم الأخرى بأبعد مما كان بينهما حينذاك، وإن اختلف الأمر فى النوع والمظهر. إذن لم يبق أمامنا إلا العامل البشرى.

هل عرب اليوم أبناء لعرب الأمس، يملكون ما امتلكه الآباء من رغبة فى البقاء، وتصميم قوى على البقاء الفاعل، ومسعى لا يكل ولا يمل نحو البقاء الفاعل المتميز فى عالم التنافس الرهيب الراهن؟

لا أعنى بذلك خصومة لأى شعب مهما اختلف أو بَعُد عنا، ولا إعراضا عن أية ثقافة، ولا إهمالاً لأية لغة .

فماضينا السحيق الثرى بالثقافات، وحاضرنا الذى نتمناه ونسعى إلى تحقيقه بأيدينا، وكل الأيدى المحبة لخير الإنسان - يفرض علينا حب أخينا الإنسان مهما كان الموطن الذى يعيش فيه، والعرق الذى ينتمى إليه، ويفرض علينا الاحتفاء الكامل بكل الثقافات، والإحاطة بكل ما استطعنا من لغات.